كتاب

الوادى المقدس

تأليف

دكتور محمد كامل حسين

الوادى المقدس

ألف هذا الكتاب الأديب الطبيب الدكتور محمد كامل حسين.

يقول المؤلف (الوادى المقدس هو البقعة من الأرض، وهو القطعة من الزمن، وهو الحال النفسية التى تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء، فوق ضرورات الحياة، بل فوق حدود العقل).

أقول حين تجلى الله فى سيناء قال لموسى (فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى).

الوادى (هو حيث تهتدى إلى الحكمة والتفكير المستقيم، حيث تطلع على حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة.. وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا تتردى فى ظلام الجهل أو ضباب الخطأ)..

وما أروع قوله: (فى الوديان قوم يرون أنك منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك. أما فى الوادى المقدس فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير، يسمو فيه المظلوم – وإن كان متواضعا – فوق الظالم، وإن بلغ السماء عظمة وشغل الناس بمجده وجبروته... ذلك أن الظالم لايستطيع أن يستمتع بأمن الوادى المقدس مادام ظالما). ومعنى هذا عنده أنك إذا رأيت نفسك فى قبضة شر لاتستطيع له ردا، وإذا اعتراك اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة، وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة فى النظم التى لاتستطيع تغييرها، إذا حل بك هذا الظلم فليس لك إلى النجاة من سبيل، إلا أن تأوى إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص من اليأس والقلق.

يقع الكتاب فى سبعة فصول:

الوادى المقدس – التطهر – التطهر عن طريق الدين – الهدى والضلال – الحقائق الأبدية – الحرمان – الضباب...

رحلة كبيرة للنفس تصفو فيها من أدرانها حين تشارف المنبع ثم تدانيه وتتطهر فيه.

والتطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة.

ولم يعرف الناس فى تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين فى تطهير النفوس، وعن طريقه بلغت النفس الإنسانية أقصى ما بلغته من سمو.

ويشمل بحث الكاتب فى التطهر بالدين مباحث ثلاثة:

* مبحث فى طبيعة النفس الإنسانية.
* ومبحث فى القدرة الإلهية.
* ومبحث فى الإيمان من حيث هو الصلة بين الله والإنسان.

والطبيعة البشرية فى أول أمرها تكون غفلا غير ذات لون خاص. ثم تدب فيها روح الاستهداء وبذلك تصبح نفسا... حتى إذا اهتدت فعلا، كان لنا أن نسميها ضميرا.

وهو يرى أن النفس الإنسانية بفطرتها وطبيعة تكوينها تستهدى الخير... وأكثر الناس طيبون بطبعهم، يرتاحون إلى عمل الخير ويستشعرون سروراً عميقا حين يتاح لهم أن يعملوا عملا صالحا... ويدل على الخير الكامن فى النفوس أن يندم الناس على مايعملون من شر، وأكثرهم لايندمون إلا قليلا وإلى أمد قصير على خير عملوه ففاتهم نفع كانوا يرجونه على حين أنهم يندمون كثيرا على شر ارتكبوه كان لهم عنه مندوحة. وقد يفرحون به وقتا قصيرا ثم يذهب النفع ولا يبق إلا الندم.

قد تقول إن أعمال الناس لاتدل على أنهم بفطرتهم يستهدون الخير والواقع أن الآمال السيئة لاتدل دائما على سواء فى طبيعة فاعليها، أليس من طبع النار أن تضىء، ثم يحدث أن تكون مصدر دخان تظلم به الدنيا، وتختنق به الأنفاس، ولا يدل ذلك على طبعها... كذلك النفوس قد تكون طيبة بفطرتها ثم يعتريها ما يحجب عنا ضوءها ودفئها ويزيد فى دخانها.

ويتحدث الدكتور محمد كامل حسين عن «الإيمان» فيعرفه بأنه قوة كامنة فى النفس السوية ترجع إلى طبيعة تكوينها، وهو أصل الصلة بين الله والناس... ذلك أن النفس البشرية لامناص لها من أن تؤمن بشىء.. والذين لايؤمنون بشىء، أصلا قليلون وهم

المشوهون نفسا الذين يعرضهم إلحادهم إلى اضطراب نفسى عنيف... وعدم الإيمان مصدر أكثر الأمراض النفسية، وضعف الإيمان أكبر أسباب القلق النفسى.

ويتكلم فى هدوء اليقين وعمق الدارس عن خلاف المتدينين فلا يرى رأى القائلين أن الخلاف يزول إذا حملوا الناس على اعتناق دينهم كأنهم يريدون أن يكون العالم كله على دين واحد... ومن هنا كانت حماستهم فى التبشير.. ولم ينجح التبشير بالمسيحية نجاحا يذكر إلا فى البلاد الوثنية لحاجة الوثنيين الشديدة إلى الهداية. ولكن أهل الأديان الأخرى لم يؤثر فيهم التبشير كثيرا.

وظن غير هؤلاء أن التوفيق بين الأديان يتم عن طريق الفهم العقلى لما فى كل دين من تعاليم ومبادىء سامية. ولكن الفهم العقلى لعقيدة تخالف عقيدتك لايؤدى إلى الفهم الروحى والاطمئنان النفسى إلى هذه العقيدة فهذا أمر أعمق كثيرا من الفهم العقلى.

وظن آخرون أن التفاهم بين المتدينين يكون عن طريق التسامح. والأصل فى التسامح أن تستطيع الحياة مع قوم تعرف يقينا أنهم خاطئون.. كأنك تتجاهل عقائد الآخرين... والدين أعز على الناس وأشد أثرا فيهم من أن يكون تجاهله مؤديا للتفاهم الحق... وقد يكون التسامح على هذا النحو استخفافا منك بعقيدتك وهو حينذاك يكون شرا من التعصب بالنسبة إلى قدرتك على التطهر دينا... وقد يكون التسامح كرماً منك تجود به على من هم دونك إيمانا... هذا التسامح لايؤدى إلى تفاهم سطحى لايؤبه له ولا يدوم إلا قليلا.

أما نظرية الوادى المقدس فقد تؤدى إلى التفاهم المنشود... إذ هى لا تحملك على التساهل فى شىء من دينك... وهى كذلك لاتحملك على أن تحتقر عقيدة غيرك... وهى وحدها التى تعلم الناس أن **التدين يبدأ من نقطة واحدة هى النفس الإنسانية وينتهى إلى غاية واحدة هى الله**. وأن التطهر به يتم بعد ذلك على اختلاف طباع النفوس المتطهرة.

ومن أروع ما فى الكتاب حديث الدكتور محمد كامل حسين رحلة الأديان فى عملية تكامل... يقول:

المثل الأعلى عند المسلمين النفس المطمئنة.
والمثل الأعلى عند المسيحيين النفس المحبة.

والمثل الأعلى عند الموسويين النفس العادلة.

ولعل المثل الأعلى عند البوذيين النفس المتخلصة.

هذه المثل العليا تختلف اختلافا بينا، إلا أنها كلها تؤدى إلى الصحة النفسية إذا وافق المثل الأعلى ما ركب فى نفس المؤمن به من طباع.

ولا تنفع تعاليم النفس المتخلصة فى تحقيق صحة نفس من مثلهم الأعلى العدل أو الحب. هذه الأمور لاتوائم النفس الساعية إلى التخلص، والنفس التى جبلت على إكبار العدل لاتستقيم صحتها على خير وجه إذا أرغمت على الأخذ بتعاليم النفس المحبة لأن هذه تضع الحب فوق العدل.

والنفس المطمئنة جماع ذلك كله... تطمئن إلى العدل إذا هذبت حواشيه وخففت من قسوته عاطفة الحب. والجمع بين العدل والحب يؤدى إلى الرحمة وهى عند المسلمين أرقى من العدل. وأقوى من الحب وأقرب إلى طباع أكثر الناس. وهى عندنا أعظم صفات الله.

والأديان المنزلة هبطت على الناس على هذا الترتيب حين أريد للإنسان أن يتصل بالله. فتعلم من الدين أول ما تعلم أن الله يثيب المحسن ويعذب المسىء، وهو حق إلهى لاشك فيه. ثم أنزل الله عليهم عاطفة الحب دعوة المسيح المحببة فتبينوا أن الله وإن كان يجزى الناس بأعمالهم إلا أنه يثيب كذلك على حب الناس إياه وحبهم بعضهم بعضا، ثم أنزل الله على الناس القرآن يجمع بين العدل والحب فى صفة واحدة هى الرحمة، ولم يكن للإنسان أن يدرك فى أول عهده بالدين كل هذه المعانى قبل أن يستقر كل معنى منها فى طبائع البشرية.

فاختلاف المثل العليا السماوية لايرجع إلى اختلاف فى هداية الله للناس ولكنه اختلاف قى قبول النفس الإنسانية للهداية وقدرتها على استيعاب كل معانى الخير.

ويتحدث الكاتب الطبيب عن الملل... وهنا يقول: قل أن تجد رجلا مؤمنا يصيبه الملل من كتبه المقدسة. وقليل منهم من يمل العبادات، وهم يكررون صنيعا واحدة فى دعائهم الله وفى صلاتهم له ولا يصيبهم من ذلك ملل... بل إن أثر الدعاء والصلاة فى نفس المؤمن يظل قويا أبدا رغم تكراره يوما بعد يوما... وهى ظاهرة لانراها فى غير الأمور النفسية العميقة.

ويحلل الملل بأنه ظاهرة تكاد تكون عامة فى الكائنات الحية وهو أوضح ما يكون فى الإنسان. وجوهر هذه الظاهرة أن القوة التى تعمل فى الكائن الحى تحدث فيه أثرا بعينه.. حتى إذا استمر عمل القوة نفسها على هذا الكائن ضعف أثرها فيه وإن ظلت على قوتها الأولى... فالصوت الذى يوقظ النائم فى أول الأمر يفقد هذه القدرة حين يتكرر كثيرا.

وأكثر رجال الاجتماع والسياسة يغفلون تقدير الملل فى الناس فيفسد بذلك حسابهم نتائج أعمالهم. فطن إلى ذلك لامارتين حيث قال إبان ثورة من ثورات بلاده: إن فرنسا أصابها الملل.

ومن أمتع ما فى الكتاب حديثه عن حرية الفكر فهو يرى الظلم نوعين: ظلم بالعسف وظلم بالحرمان.. وعنده أن حرية الفكر هى العامل الحرمانى الأول فى حياة الأمة... والحرية الفكرية هى الأمر الذى إذا حُرِمه الناس شل نشاطهم مهما يكن الإنتاج المادى أو الفنى أو القوة التى يبلغونها... وهى لايمكن أن تكون عند كل فرد من الجماعات التى يصح أن نقول عنها إنها متمتعة بها... وإنما يكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار يتمتعون بحرية كاملة.

وحرية الفكر أيضا من الأمور التى لاتستطيع أية أمة أن تستعيض عنها بغيرها من الأمر، فالقوة والغنى والفتوحات لاتمنع الدولة من الانحطاط، إذا لم يكن فيها القدر الكافى من حرية الفكر، بل إنه يشاهد فى التاريخ القديم أن زوال بعض الدول إنما تم بعد فتوحات ضخمة، فإن ذلك دفع القائمين بالأمر فيها إلى الاستبداد وعند ذلك يبدأ الضعف المميت.

وأخيرا يقارن بين العقل والعين فى الرؤية وينتهى إلى أن الخطأ ليس فى الاحتكام إلى العقل ولكن الخطأ كل الخطأ أن نسرف فى الثقة به فنتعدى حدود طاقته ونحمّله ما لا قِبَلَ له به.

وقد يكون البسطاء أهدى من الأذكياء ويكون ذلك لأنهم يظلون فى الدائرة المنيرة التى يضيئها لهم عقلهم ولو كان نوره خافتا.

وإذا كان علمنا بالماضى ناقصا حتما، وإذا كانت قدرتنا على الإحاطة بأسباب الأحداث الماضية ناقصة حتما.. وإذا كان تصورنا للماضى يختلف باختلاف تفكير كل منا وسابق خبرته، فكيف يستطيع أحد أن يطمئن إلى صواب تقديره للمستقبل وهو لايعرفه إلا قياساً على معرفته بالماضى وهى ناقصة من غير شك.

ويصف الضباب فى الحياة ومما ينجم عنه... أقصد الضباب المعنوى، بقوله: يبدأ الناس حياتهم الدنيا وهم فى طريق واضحة مشرقة مستقيمة... ثم يغريهم ما يرون على جانب الطريق من أشجار عالية يرونها مثقلة بالثمار... يرون ذلك من خلال الضباب فيخرجون عن طريقهم تدفعهم إلى ذلك رغبتهم فى الاستزادة من المعرفة بها والاستمتاع بخيرها... حتى إذا جاءوها لم يجدوا فيها ما كانوا يؤملون... ويحاولون العودة إلى الطريق المستقيم والوادى المقدس وأكثرهم يضلون عنه.

وهم يعيدون بذلك خطيئة آدم... وهى خطيئة لايكاد ينجو منها أحد من أبنائه منذ خلق الله الأرض ومن عليها.

* * *

ما أروع التقاء الفن بالعلم فى : كتاب

وفى كيان إنسان

obeikandl.com